قراءة في كتاب روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب[1]

رونيه بيراز (فرنسا)
ترجمة : أحمد عمراني (فرنسا)

أريد في ختام هذه الدراسة الرجوع إلى المحطة التي انطلقنا منها : فلقد شرعنا في المقدمة بفحص سياق وجذور كتاب روضة التعريف بالحب الشريف ، فتعرضنا أولا لبعض السياقات التاريخية وبالتحديد السياقات الدينية ثم للظروف الخاصة التي دعت إلى تأليف الكتاب - لأن كتابات لسان الدين ابن الخطيب هي بشكل من الأشكال وليدة الظروف – وتطرقنا أيضا إلى المحطات الكبرى في حياة هذا الكاتِب وإلى الدور الذي لعبه كتابه هذا. وسأقدّم هنا بعض الأحكام على مسائل كثيرة تناولتها بالفحص والدراسة.

1 - حول قضية ابن الخطيب :

أ – ديانة ابن الخطيب :

إنّ محنة موت ابن الخطيب والتي انتهت بعد محاكمة قاسية حُكم عليه فيها بالزندقة تجعلنا نطرح السؤال التالي : كيف كانت ديانة ابن الخطيب ؟ وهل يستحق الرجل هذه التهمة أو هي مجرد تهمة «أثارها الحقد والعداوة» كما يرى المقري[2] ؟

وإذا حاولنا تلخيص نتائج دراستنا فإنه يمكن تمييز ثلاث مستوايات :

على مستوى الإيمان المعلن عنه : إنّ ابن الخطيب هو مسلم لا تشوبه شائبة : له إيمان ثابت بالعقيدة الأشعرية ، ورفض علني للأطروحات التي تُقدّم على أنها خاطئة ويقول بها الفلاسفة القدماء والمعتزلة

---

[1] هذا النص هو خاتمة أطروحة دكتوراه قدمها رونيه بيراز سنة 1981 م في جامعة ليون الثانية بفرنسا تحت إشراف دانيال جيماري. كان عنوانها (روضة التعريف بالحب الشريف ، رسالة صوفية عن الحب الإلهي ، تقديم عام ودراسة لمفهوم الحب الإلهي). رونيه بيراز معروف بترجمة رسالة ابن خلدون في التصوف (شفاء السائل) إلى الفرنسية وتقديمه لها بدراسة مطولة عن الكتاب وعن التصوف في القرن الثامن الهجري.

[2] يذكر المقري : «واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة ، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه ، فلما قلبت الأيام له ظهر مِجَنّها ، وعاملته بمنعها بعد منحها ومنّها. أكثر أعداؤه في شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام ، بتنقيص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول بالحلول والاتحاد ، والانخراط في سلك أهل الإلحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد ، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد ، مقالات نسبوها إليه خارجة عن سنن السويّ ، وكلمات كدّروا بها مَنهَل علمه الرَّويّ» من كتاب نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، ج 5 ، ص 118-119.

وأصحاب المدارس المهرطقة. ولا يوجد أي حجة تدعو للشك في صدقه من هذه الناحية. كما يمكن أن نسجل لصالحه بعض الحالات المذهلة التي كان فيها منفتح الفكر مقارنة بأفكار عصره مثل مواقفه من منع الحمل ومن الإجهاض ومن استعمال النبيذ للعلاج.

على مستوى توافق المعارف المنزلة مع الأنظمة الفلسفية الكبرى : لقد لاحظنا أن ابن الخطيب يُبدي استيعابه لمواقف القسم الثالث من العلماء الذين يعرضهم علينا في الفصل الخامس – والذين يسميهم الحكماء المسلمين وعلى رأسهم ابن سينا. فإنه لا يبدي فقط تبنيه مواقفهم بشكل علني لكن إحالات انتمائه لهم كثيرة وواضحة : حيث يعرض هذه المواقف على أنها مذهب موحَّد وقائم بنفسه ولا يشوبه النقد. في حين إذا كانت بعض عناصر هذا النظام المذهبي تنسجم مع المعارف القرآنية (العدل الإلهي على سبيل المثال) فإن البعض الآخر لا يتسق مع المعارف القرآنية (نظرية الفيض وبعض المفاهيم حول الروح على حسب الحالات مثل قبل وجود الروح وفرادتها معرفيا ورجوعها للعدم ...)

على مستوى مسيرته الصوفية وممارسته للتصوف : لقد ذكرنا سالفا أن ابن الخطيب وهو يرفض صراحة النظام الفلسفي حول الوحدة المطلقة فإنه تبنى فيما يخص التصوف وبالخصوص في غايته موقفا عمليا وخطابا في كل مسائله مشابها للسبعينية ومبينا في آخر المطاف تعاطفا واضحا معها. ويمكن أن نضيف لهذا الأمر ، العديد من التلميحات التي لا يشوبها النقد لنظريات تدور حول الوَلاية.

لكن يمكن لأحد أن يعترض على أن هذه المستويات الثلاثة ليست منسجمة فيما بينها وأنه لا يمكننا مثلا أن نؤمن بعقيدة ونأخذ في نفس الوقت بمواقف فلسفية مناقضة لهذه العقيدة. وهذا بلا شك ما يمكن أن يكون إذا أخذنا بالجانب المنطقي في القضية وقارنا **الأفكار** فيما بينها. لكن الأمر مختلف إذا أخذنا بعين الاعتبار **الأشخاص**. فعدة أفراد يتبنَّون بصدق عقيدة معينة ويقبلون حسب الحالات ببعض الشك والتساؤلات والخلط ببعض الأنظمة الأخرى. وهذا هو حال ابن الخطيب فيما يبدو لنا.

في حين كما يسجل الباحث مُحَّد الكتّاني[1] مهما كان محتوى كتاب الروضة فإن مصير الوزير الغرناطي الهارب كان قد حُسم : لما وقع في قبضة أعدائه لم يكن أي أمل في أن يتخلص من حقدهم باستعمال أية ذريعة.

ب – تجربة ابن الخطيب الصوفية ؟

لقد كتب ابن الخطيب هذا الكتاب المُهم حول التصوف. لكن بعض الكُتّاب رأى في ابن الخطيب مجرد «رجل زاعم للتصوف» والبعض الآخر رآه «متصوفا حقيقيا».[2] وفي كلتي الحالتين إن هذين الموقفين يكسوهما الغلو فيما يبدو لي.

[1] ابن الخطيب ، *كتاب الروضة* ، مقدمة المحقق ، بيروت ، 1970 ، ص 54.

[2] انظر موقفيّ :

وفيما يتعلق المنهج فإنه لا يمكننا المجازفة بإصدار حكم بدون النظر ولو بشكل يسير إلى التجارب التي خاضها ابن الخطيب نفسه. وهذا ما فصّلناه في الفصل الثاني من عملنا حول سيرة ابن الخطيب. فلقد سمح لنا هذا المنهج بتتبع مسار ابن الخطيب الروحي حسب بعض الفترات المعينة :

فترة المنفى إلى مدينة سلا (1359م-1362م) : مهما كانت السنوات السابقة قبل وصول ابن الخطيب إلى مدينة سلا فإنه قد عرف بلا شك فترة روحية غزيرة في مدينة سلا. ففي حين استقر سلطان غرناطة المخلوع في مدينة فاس بالقُرب من المرينيين فإن وزيره بن الخطيب قد اختار مدينة سلا ، ونحن نعلم دوافع هذا الاختيار لأن ابن الخطيب أراد أن يعيش حياة هادئة بعيدا عن حياة البلاط. إضافة إلى أن مدينة سلا قريبة من مقبرة شالة حيث أضرحة ومدافن الكثير من الشهداء ومن بينهم قبر السلطان المريني أبو الحسن علي. وهي مقبرة يقصدها لكثير من الزوار آملين في البركة. ويوجد بين مدافن المدينة ضريح الصوفي الشهير ابن عاشر الذي يجلب العديد من مريدي التصوف. وهذا ما جعل المدينة تحمل اسم (ملتقى الصوفية)[1]. بعدما جاب ابن الخطيب جنوب المغرب «لزيارة الصلحاء ومعاينة مآثر الزمان» قام بخلوة لمدة شهر كامل (شهر رجب 18/761 مايو 1360) في مدينة شالة ، ثم استقر بسلا مع عائلته وتعوّد على بعض العبادات الروحية : أوراد وأذكار ، إلخ. فقد كانت أسعد فترة وأنشطها حسب قوله. وهذا ما لا يمكن الشك فيه. وهكذا بعدما وصل إلى المدينة اقتنى امرأة (جارية مسيحية). وقد اتهمه النباهي - وابن خلدون أيضا - بأنه ترك سلطانه بدافع انتهازي. وقد استغل رحلته إلى المغرب لتنمية ثروته من الأمراء الذين التقى بهم. وليس هذا المنعرج الكبير الذي يسجل انقلابا في الحياة الروحية والذي يعرف ابن الخطيب شروطه ويلخصها في نهاية كتاب الروضة (ص 709) : «وإن طال الحق من شرط وصوله ، سلب فضوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلا عن صوته ، لكنني خضت على عدم السباحة غمرا».

وبعد رجوعه إلى غرناطة سنة 1362م بدعوة من سلطانه مُحَّد الخامس لإصلاح سنتين ونصف من استيلاء مستبد البلاط تم سجن ابن الخطيب. ولم يتمكن من الرجوع إلى سلا كما كانت رغبته الأولى. ولم يستطع الذهاب إلى مكة أيضا. وترك طقوسه التي تعوّد عليها في سلا : الوجد والذكر والمسبحة... واستهوته السلطة وحياة البلاط. ونلتمس هذا في الأعذار التي يقدمها في ختام كتاب الروضة (ص 708) : «شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقّبت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبد الذي لا يملك شيئًا – عند ذكر الحظوظ – مقام المعاتب» ويضيف إلى هذا اعتراف آخر صادق في نفس الفترة فيقول في كتاب الروضة (ص 708) : «ومن كان بهذه المثابة ، وإن عدّ يقظا حازما ، ونحريرا عالما ،

Emilio Garcia Gomez, préface au livre d'al-'Abbâdî, *El Reino de Granada*, Madrid, 1973, p. XIV.-

- Emilio de Santiago Simon, *El corazon, el espiritu, rl intrlrcto y et alma en la Jutbar al-agrâs wa tawti'at al-girâs*, thèse de doctorat soutenue à l'Université de Grenade en Juillet 1979, p. 31.

[1] Paul Nwiya, *Ibn 'Abbâd de Ronda (1332-1390)*, Beyrouth, 1961.

فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا يربع عليه من قصاد الله فريق ، ولا ينساغ له ريق». ويضيف في شهادة أخرى وجيزة إلا أنها بليغة تدخل ضمن رسالة بعث بها إلى ابن خلدون يقول فيها : «فصدرت تقاييد ، وتصانيف ، يقال فيها — بعدما أعملته تلك السيادة من الانصراف — يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم »[1]
هذه العبارة الأخير هي إشارة لطيفة أربكت الشُرّاح. فيعتقد مُحَّد الكتاني - بعد بن تاويت الطنجي - أنها تشير إلى الآية (يا إبراهيم أعرض عن هذا ، هود 76). وهذه الإشارة لا تضيف أيّة إيضاح وحتى الآية (وناديناه يا إبراهيم ، الصافات 104) لا تسعفنا في فهم عبارة ابن الخطيب. أما عبد السلام شدادي من جهته فقد ترجمها إلى الفرنسية كالتالي : «تقاييد وتصانيف لم تلق أية فهم.»

في الحقيقة ، أي واحد قرأ بتمعن كتاب الروضة فإنه لا يتردد في فهم هذه العبارة : نحن هنا أمام إشارة إلى حادثة مشهورة لحياة لإبراهيم ابن أدهم التي تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة. وهو أحد أكبر المتصوفة المسلمين الأوائل (المنتصف الأول من القرن 2هـ/8م). فالعديد من المؤلفات الصوفية تروي توبة هذا الأمير الخراساني وعزفه عن حياة البذخ. ففي يوم من الأيام كان يصطاد ثعلبا فسمع صوتا نابعا من قربوس سِرجِه يقول له ثلاث مرات: (يا إبراهيم. ليس لهذا خُلقتَ. ولا بهذا أُمرتَ). ففزع إبراهيم وترك في حينه حياة البلاط ولبس الخرقة وبدأ حياة الزهد والعبادة. فبقي إبراهيم ابن أدم نموذجا للتوبة الخاطفة وللزهد الحقيقي بعد أن سمع أمرا سماويا. وقد رأينا سلفا إشارة إلى هذه الشخصية والمعدودة من بين المختارين الذين اصطفاهم الله ليسلكوا طريقه.

ومعنى هذه الإشارة واضح : إبراهيم بن أدهم قبِل النداء الآتي من السماء بلا تردد. في حين كان الأمر مختلفا مع ابن الخطيب. لأنه أدرك جيدا أنه يسبح في شواغل الدنيا ، وأن « وقته عامر بما لا يخدم رضى ربه». فقد ضيع هو أيضا نداء سماويا يُغيّر به حياته. للأسف لم يملك ابن الخطيب يومها الجواب الذي قدمه إبراهيم بن أدهم لهذا النداء.

هذه الإشارة اللطيفة تبين لنا الصراع الذي عاشه ابن الخطيب في هذه الفترة. فالوزير المشهور والكاتب البارز ليس في الحقيقة إلا غريق وتائه يؤنبه ضميره على مقاومته لندائه الداخلي.

يمكن أن نضيف إلى هذا الصراع الداخلي القلق والنزاعات الآتية من المشادات التي عاشها في هذه الفترة والتي ذكرناها سابقا. فالقلق والنزاعات دفعاه إلى المرض. ففي فترات لم يكن يميز بين الواقع والتوهمات وبين الحياة المعيشة والحياة المأمولة. فهذه الحالة النفسية وحدها يمكنها أن تفسر بعض كتابات ابن الخطيب الغريبة في هذه الفترة. فهذه بعض مقتطفات ارسلها إلى صديقه الشاعر ابن خاتمة حيث يعتبر رغباته على أساس أنها حقائق : «والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة.غير معترضة ولا منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوّض حب الدنيا بمحبته ، فإذا رادعها مثلي من بعد الفراق ، وقد رقى لدغتها

[1] ابن خلدون ، رحلة ابن خلدون ، تحقيق بن تاويت الطنجي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2004 ، ص 111.

ألف راق ، وجمعتني بها الحجرة ، فما الذي تكون الأجرة ؟ جل شأني ، وإن رضي الوامق وسخط الشاني : إني إلى الله مهاجر ، وللعرض الأدنى هاجر»

لا نرى في الواقع كيف ظهرت هذه التصريحات. ويجب أيضا التطرق إلى هذه الرسالة الغريبة إلى ابن مرزوق حيث كانت وضعية بلاط سلطان فاس شبيهة بحالة ابن الخطيب. يلومه على تعلقه بالأمور الدنيوية والشؤون السياسية ويدعوه إلى هجر الدنيا وما فيه من أجل الله ويحذره من الأخطار النفسية. وقد علّق ابن مرزوق فيما بعد على رسالة ابن الخطيب بهذه العبارات النبيهة : «والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به - أبقاه الله تعالى — تحلّى به أجمع ، وابتلي بما منه خذّر ، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له ، فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص.»

ففي هذا السياق ومع حالة ابن الخطيب النفسية هذه قد ألّف فيها كتاب الروضة. وهو يكتب هذا الكتاب قد قام بتسجيل المواضيع التي كانت تؤرقه. فأفصح عن بعض مشاغله ورغباته الكامنة في ذاته والتي لم تتحقق.

الفرار إلى المغرب عبر جبل طارق (1371م) : كان الفرار بالنسبة لابن الخطيب وسيلة للهروب من هذا الصراع المحتوم وفرصة لتحقيق الحياة الروحية التي يرغب فيها. وهذا على كل حال ما أعلم به سلطانه في رسالة مستعجلة بعث بها إليه وهو في جبل طارق وقبل أن يجتاز المَعبَر : «فغلبته [أي خادمكم ابن الخطيب] حال شديدة هزمت التعَشّق بالشمل الجميع والوطن المليح والجاه الكبير والسلطان القليل النظير ، وعمِل بمقتضى قوله (موتوا قبل أن تموتوا). فإن صحت هذه الحال المرجو من إمداد الله ، تنقلت الأقدام إلى الأمام ، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى ، وإن وقع العجز وافتضح العزم ، فالله يعامنا بلطفه».[1] وبعد وصول ابن الخطيب إلى مدينة تلمسان كتب رسالة إلى ابن خلدون يُعلمه عن عزيمته. فهنأه ابن خلدون بهذه العبارة : «هنيئا ، فقد نالت نفسكم التوّاقة أبعد أمانيها ، ثم تاقت إلى ما عند الله.»[2]

يبدو أن كل شيء جعل ابن الخطيب يختار حالة التخلي والانقطاع: عمره ، وتجاربه ، وابتعاده عن بلاط غرناطة ، وحالته البئيسة ،... ونحن نعلم ماذا فعل. فحينما توفى بعد أشهر ولي نعمته عبد العزيز رجع ابن الخطيب إلى فاس مع الوزير أبي بكر بن غازي الذي ضمن له امتيازاته التي كان يعطيها له السلطان عبد العزيز. والقتنى ابن الخطيب ممتلكات وعمل جهده على بناء البيوت وغرس البساتين». وفي هذه الفترة كان ابن غازي يجابه عدوين يرغبان في السلطة وجّههُما له السلطان مُحَّد الخامس. ونحن نعرف أيضا كيف مات ابن الخطيب في 1374م وكان قد أدرج في كتاب الروضة (ص 175) خطبة نقرأ منها هذه

[1] رحلة ابن خلدون ، ص 131.

[2] رحلة ابن خلدون ، ص 127.

العبارات : «فلو أبصرتم مسافرا في البرية يبني ويغرس ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ؟ وتعجبون من ركاكة عقله ؟ والله ما أموالكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم إلا بناء سفر في قفر ، أو أعراس في ليلة نفر.»

إن مصير ابن الخطيب يستحق شيئا من العطف. لأن رغباته كانت حقيقية وعميقة وصراعاته كانت مؤلمة بنفس القدر. لكن يمكننا أن نقول عنه إنه كان استاذ فلسفة جيد ، وطالع الكثير عنها ، وفهم جيدا الفلاسفة ، وتمكن من شرحهم ، غير أنه لم يكن فيلسوفا ، وهذا ما كان عليه أيضا مع التصوف. فقد تابع ابن الخطيب العديد من الشيوخ ، وقرأ الكثير ، وتعاطى بلا شك بعض الممارسات التي أكسبته تجارب في التصوف. لكن يجب على المرء الكثير من الأمور حتى يستحق كلمة «صوفي»: حياة تبرز فيها بشكل علني أو خفي شعلة خاصة وطريقة جذرية في البحث عن المطلق تُخرج من الإطار المتعارف عليه. فلا يمكننا القول إن ابن الخطيب كان «صوفيا».

2 – التيار الصوفي في أندلس القرن 8هـ/14م

إذا تجاوزنا حالة ابن الخطيب الآن وتوجهنا إلى إلقاء نظرة عامة حول التيار الصوفي في زمنه كما يبدو لنا في كتاب الروضة ، فإنه يمكننا أن نلخص الخطوط العريضة. وستتمّم هذه الملاحظات ما قلناه في الفصل الأول.

أ – الأمر اللافت للانتباه هو الأهمية التي تحظيها الخلافات الفلسفية في كتاب حول التصوف. تظهر هذه الأهمية من حيث ضخامة الكتاب وكمية الصفحات الهائلة المخصصة لهذه الخلافات. وتظهر أيضا في تركيبة الكتاب. ولا يتم الرجوع للمنهج الصوفي إلا بشكل قليل عبر تجارب صوفية أو شهادات أو قصص أو قوالب معروضة على شكل تجارب. حيث يتداخل هذا المنهج الصوفي ضمن اعتبارات مذهبية ذات أصول جد مختلفة. فمشروع ابن الخطيب بديع في جوهره : لأنه حاول أن يبرر التجربة الروحية بأشكالها المخالفة وعبر روافد الفكر الإنساني في شموليته حيث يصنع طريقة للتزكية. والرافد الذي أشرنا له عدة مرات هو الرافد السينوي (نسبة لابن سينا).

هذا الانفتاح على الأطروحات الفلسفية وبالأساس الفكر الإغريقي والهيلينستي كان أحد أهم الاتهامات الموجهة لابن الخطيب.

ب – ميزة ثانية تطغى على كل الكتاب هي أهمية تيار وحدة الوجود عند متصوفة تلك الفترة. وهذا الأمر قد أشرنا إليه في العديد من المرات طيلة دراستنا. ومن الصعب تقييم الأهمية العددية لهذا لتيار انطلاقا

من كتاب الروضة. لكن من خلال اهتمام المجتمع يتضح أنه تيار له وزنه. وينطبق على الذين يطلق عليهم بصفة عامة لقب «غلاة الصوفية». ويدرج ضمن هذا التيار مدرستين : مدرسة التجلي ومدرسة الوحدة المطلقة. وهذه المدرسة الأخيرة المعروفة بمواقفها المتطرفة هي التي طرحت مسائل على الفكر الإسلامي في هذا الزمن. وهي جد حاضرة في كتاب الروضة سواء بشكل مباشر (حيث تظهر بشكل منتظم معشوقة ومرفوضة) أو بشكل غير مباشر وخفي (بالإشارة والاقتباس غير المعلن عن أصحابه واستعمال مفرداته الخاصة ، ...) يبدو أن مدرسة الوحدة المطلقة هزّت المجتمع الإسلامي حينها عبر صرامة مريديها وعبر ردة الفعل القوية التي أخذها أعداؤها رغم بعض المواقف المعتدلة عند ابن الزيات أو ابن الخطيب نفسه مثلا.

هذه هي التهمة الثانية الأكثر ثقلا والتي وُجهت لابن الخطيب.

ج – تُعتبر تصورات ابن الخطيب لمسألة النبوة أو بالتحديد لمسألة الإمامة تصورات ذات أهمية خاصة. فتظهر تصوراته بصفة عامة مرتبطة بمفهوم الولاية والتي جعل منها المُؤلِّف ثمرة شجرة الحب الشريف. فأعطى بذلك لهذه المسائل أولوية خاصة. فكانت مسائل الولاية بإمكانها أن تعرف امتدادات على مستوى المجتمع وتثير بعض العناية الخاصة من قِبل أصحاب السلطة أكثر من مسائل النبوة والإمامة.

فكما نعلم فإن ابن الخطيب قد أُتُّهِم بالمساس بقيمة النبي مُحَّد (ص). ربما بشكل أو بآخر قد ارتكزت هذه الاتهامات على صفحات من كتابه الخاصة بمسائل الولاية.

د – فيما يخص مسألة الحب الإلهي كما يقدمها كتاب الروضة فإنه من الأهمية أن نسطر على مكانة هذه الحب المحورية والتنظيمية في حياة الصوفي. فهو جد حاضر في الحياة الروحية في الإسلام وبالخصوص ضمن التيار الصوفي. لكنه أمر استثنائي أن تُعطى له هذه المكانة المحورية ، اللهم إلا في كتاب الروضة.

ومن بين مظاهر هذا الحب والذي يحتفي بأهمية قصوى هو ذلك الذي يعرض الحب على أساس ديناميكية شاملة ويكتسي أشكال متشابهة : مثل العشق الذي هو تيار معاكس للتصور الفيضي. وبمقدرته أن يحمل كل إنسان بدون استثناء حتى غير المسلم نحو الله. ويكفي أن نسلك الطريق تحت مشيئته حتى نستحق لقب «عاشق الله» حتى وإن لم نصل.

ولا ننسى أن نسجل المكانة التي تحظاها مسألة المعرفة في كتاب الروضة. فهي تشكل مركزا لعدة اعتبارات : المعرفة والأرواح في النظام الفيضي ، وأهمية «المعرفة» من أجل تحصيل السعادة ، ومن أجل معرفة الحب ، ومن أحل معرفة الله (من عرف نفسه فقد عرف ربه) والمعرفة والخليفة (الذي له معارف روح العالم)...

ه - هناك ميزة أخرى طاغية في التصوف نجدها في كتاب الروضة : يحصل القُرب بالتخلي والمحو ، والفناء ، إلخ. وفي طيات هذا التصور تتضح صورة الروح المنفصلة عن العلة الأولى واتصالها بالمادة (الجسد وعالم الحواس) : يجب أن يتم التخلي من أجل سلوك طريق العودة والتقرب من الله. فيحصل الانفصال عن المادة ، وعن الخطيئة ، وعن الأعمال الحسية ، وعن الصور وعن المفاهيم ، وعن كل ما هو ليس الله وفي الأخير عن الوعي بالذات وبالعالم المحيط.

لكن إذا كان هذا المنهج من إنتاج التصوف الإسلامي ، فإن مدرسة الوحدة لها في هذه المسألة أمورا خاصة بها: فالفناء هو ترك الآثار والمعالم ، ومحددات جوهر الإنسان. فإذا توقفنا عند مصطلحات هذه المدرسة فإن الأمر يتعلق بتطهير الجوهر (جوهر الروح) حتى ترك حالة العوارض التي تعتبر إذلالا وحتى الخروج من الوجود المقيد للوصول إلى الوجود المطلق (يجب ربط الوجود المطلق بالوحدة المطلقة).

وفي الأخير نلاحظ هنا أنّ النقطة المبدئية والتي تُشكل ميزة أساسية في العقيدة الإسلامية أي (الله هو الواحد الذي ...) هي نقطة مُفكَّر فيها إلى أبعد الحدود ومُعبَّر عنها بطريقة غير مقبولة في الإسلام : رغبة في الرجوع إلى مرحلة ما قبل الخلق (الخلق من لا شيء ومن الفيض) ، ورجوع الوردة إلى غصنها الذي خرجت منه ، وكمون مَن يعتقد أنه موجود وله ذات في الذات المطلقة حيث كل ما هو خارجها هو فساد.

و — نخرج من دراستنا لكتاب الروضة بشعور يشوبه الغموض ويغذيه هذا الرجوع الدائم لمصطلحات «الغلاة» الصوفية:

من جهة ، إن بعض الأشياء تم التأكيد عليها بشدة من قبل التيار الصوفي لأنه ربما من وظيفته أن يعمل على الإبقاء عليها حية في الفكر الإسلامي. نذكر مثلا : 1 - الله الواحد ولا شيء إلا الله. فلا شيء يمكنه أن يأخذ مكانه أو أن يختلط به : لا خير مخلوق ولا أعمال ولا طقوس ولا عقيدة ولا أفكار ولا صور ولا أحوال ولا مقامات ... 2 — إذا كان الإنسان مجاهدا فإن الجهاد الحق هو جهاد النفس. حتى إن الجهاد في سبيل الله هو الذي يُسلَك ضد النفس قبل الآخرين. فهو بذلك دعوة صريحة نحو التعمق في الذات. 3 — يُعبر عن الحب بمعان من بينها أنه فناء من أجل أن يقوم الآخر. فموت النفس هو أمر جوهري في الحب.

رغم ذلك فإن هذه القراءة تُنتج أسئلة خطيرة غير مستساغة من طرف وعي المؤمن أو متطلبات فكره. وبدون الحديث عن المواقف المغالية التي سبق يمكن أن نذكر بعضها هنا :

- هل الخلق في ذاته مُكرَّم ؟ وبما أنه فِعْل الله فكيف هو ؟ لأنّ مسألة الفيوضات تتدخل فيه. وهل يعطي وجود الأشياء المخلوقة وأفعالها الحق في «الاستقلالية» التي لا يمكن تصور خلق بعيد عنها ؟ حتى يكون الله كل شيء يبدو أنه لا يمكن قبول أن يعطي وجودا خارج ذاته.

- إن تصور الحب مشوب لأن الدور الذي يلعبه الفناء والخمود والمحو غير مُعوَّض بشيء آخر من الحب في كتاب الروضة : أليس الحب هو «أن يُعطى الوجود للآخر» وأن يوهَب الآخرُ الوجودَ أو يُساهَمَ في وجوده ؟ في كل الحالات أليس الحب هو القيام بدور خارج الذات ؟
- وفي ختام ما سبق : دون أن يكون الجانب العلائقي غائبا بشكل كلي فإنه يصبح محدودا بشكل خاص.

ونقول في الختام إنه لا يمكن فصل كتاب الروضة عن سياقه الذي أنشأه.

فالغموض الذي قمنا بعرضه سالفا يمكن أضافته إلى الفقرات الأخيرة (أ ، ب ، ج) وهو نفسه الذي أربك معاصري ابن الخطيب. فالمجتمع الإسلامي بصفة عامة كان لزاما عليه أن يتفاعل عبر تاريخه ضد بعض التيارات التي عرضها كتاب الروضة والتي لم تأخذ بعقيدة الإسلام. ولكن هذه الانفعالات المتتالية هي في حد ذاتها غامضة ، لأنها من صنع الإنسان الذي توجهه ميولاته وضعفه والمُندمج في سياقات تاريخية معينة. لكن بعيدا عن الاتهامات والخطابات ، ما الأمر الذي يدافع عنه أو يرفضه بشكل دقيق كل طرف في هذا الصراع ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يصعب التمييز بين الصالح والطالح.

إن ابن الخطيب يمثل عينة جيدة عن قانون الجلاء والعتمة حيث يصعب التمييز بين النور والظلمة : فهو شخصية متجاذبة ، عرفت مسارا مليئًا بالتأنيب. وقد صَوَّرت هذه الشخصية في كتاب الروضة مرحلة من مراحل تطور التيار الصوفي المتعدد النزعات. وقد مات خلال محاكمة مستعجلة فكان ضحية للحقد الدفين المستتر تحت غطاء الدفاع عن القيم العليا.

يقدّم كتاب روضة التعريف بالحب الشريف معرفة لا يستهان بها عن هذه الشخصية الفذة وعن الصراعات الحقيقية في أندلس القرن 8هـ/14م وعن تطور التيار الصوفي بصفة عامة.